الهجرة الهلالية ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرن (05هـ/11م) وقائعها وتأثيراتها

فـــافة بكوش
دكتورالية، تخصص التاريخ السياسي والثقافي للمغرب الإسلامي
إشراف/ أ.د. مبخوت بودواية
قسم التاريخ ، جامعة أبوبكر بلقايد – تلمسان

الملخص:

Summary :

We try from this research paper to focus on the theme of the Cresent tribes and their migration to the lslamic Maghrab countries during 5h to 11 ad because it is one of the most important historical topics, which still needs more interest and further research despite what is written about it.

So, it try to uncover the facts of this migration and its effects on the Islamic Maghreb at all leVels :political, economic and social. Besides, this migration has led to radical changes through redesigning human elements which consists of the Maghreb society, and try time to time to distrubute it geographically.

Moreover,it left its effects on the political and the urban map of the Maghreb region.

As a result, reveals to us an important and a decisive historical stage in the history of The Islamic Maghreb counties.

The Key Words:

Crescent migration – The Fifth century – The Arabian tribes – The Zaire country.

مقدمة

لا شك أنّ بلاد المغرب الإسلامي شكّل أهم الأقطار العربية استقبالا للهجرات البشرية المختلفة عبر التاريخ, بداية بالفينيقيين ثم الرومان وصولا إلى العرب الفاتحين, والواضح أنّ وفود القبائل العربية نحو بلاد المغرب الإسلامي لم يقتصر على الفتوحات الإسلامية والجهاد, حيث تواصلت هجراتهم بين الفنية والأخرى, فمنهم من استقر في بعض حواضر المنطقة كتونس والقيروان ومنهم من واصل هجرته نحو الأندلس, ولعل أهم هذه الهجرات العربية نحو بلاد المغرب الإسلامي وأشهرها

"**الهجرة الهلالية خلال القرن الخامس هجري- الحادي عشر ميلادي**" والتي تعرف بـ" **التغريبة الهلالية**"[1].

وما يوضح جانبا من تلك الأهمية والشهرة أنّ هذه الهجرة تميزت بطابع خاص, فهي لم تأخذ شكل جيش منظم يأتمر لقيادة موحدة, تسير وفق خطة مرسومة, وإنّما أخذت شكل جموع انتهجت أسلوب العنف والخراب[2], وقد شملت هذه الهجرة كذلك قبائل بني سليم, والخلط والمعقل[3], والأثبج ورياح, وزغبه, بيد أنّ قوة شكيمة بني هلال غلب اسمها على مجموع القبائل القادمة نحو الشمال الإفريقي.

هذا ولا يمكن التعرض لتأثيرات الهجرة الهلالية على بلاد المغرب الإسلامي بمعزل عن الوضع السياسي السائد في مصر وبلاد المغرب عشية التدفق الهلالي بهدف الكشف عن الدوافع الكامنة وراء هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب الإسلامي, كما يجدر بنا التفصيل في وقائع هذه الهجرة, لما لها من تأثيرات سياسية واجتماعية واقتصادية وحتى ثقافية على بلاد المغرب الإسلامي.

الواقع السياسي بمصر وبلاد المغرب خلال القرن 5هـ/11م وأثره على الهجرة الهلالية:

ما ينبغي التنويه أن القبائل الهلالية وقبل استقرارها بالصعيد المصري، كانت تستوطن واد الحجاز ونجد، أين كانت مواطن "بنو سليم" بنجد، أما "بنو هلال" فكانت مواطنهم بجبل غزوان عند الطائف[5], إذ كانت هذه القبائل في أغلبها قبائل بدوية ضاغنة تنتقل ما بين البصرة و مكة من ناحية و ما بين مكة و يثرب من ناحية أخرى, تعتمد في حياتها على الرعي و الظعن بالمواشي صوب الكلأ والمرعى، كما أنّهم كانوا يقطعون الطرق على القوافل التجارية حتى على قوافل الحجاج، فكانوا بذلك مصدر قلق للدولة العباسية التي لم تستطع الحد من عدوانهم[6].

وفي سنة (316هـ/929م) دخل الهلاليين في دعوة القرامطة ضد الفاطميين[7], هؤلاء الذين تمكنوا من الانتصار على جيش القرامطة, فكان من نتائج ذلك الانتصار أن قدم على الخليفة الفاطمي وفود من بني هلال يعلنون له الطاعة والبيعة, فقبل بيعتهم وقام بنقل الكثير من قبائل بني سليم وبني هلال إلى صعيد مصر[8]، حيث استمر استقرارهم بهذه الأخيرة حتى عهد "الخليفة "**المستنصر بالله**" الذي تولى حكم مصر سنة (437هـ)[9].

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ الواقع السياسي ببلاد المغرب خلال هذه الفترة كان يشوبه تدهور العلاقات بين آل الزيري من قبيلة صنهاجة, الذين خوّل لهم الفاطميون حكم بلاد المغرب وبين السلطة الفاطمية بمصر, حيث أعلن الوالي "**المعز بن بلكين بن زيري الصنهاجي**" إسقاط التبعية للخلافة الفاطمية الشيعية ومناصرته للخلافة العباسية (سنة 440هـ/ 1048م), الأمر الذي أثار حفيظة "**الخليفة المستنصر بالله**"، فقرر توجيه القبائل العربية البدوية نحو بلاد المغرب انتقاما

من الزيرين[10]، وذلك بناء على خطة وضعها له وزيره "**محمد الحسن بن علي اليازوري**"[11]، تهدف إلى ضرورة ترحيل أعراب بني هلال وبني سليم إلى شمال إفريقيا، فالوزير "**اليازوري**" فكّر في استخدام تلك الحشود الهمجيّة لمحاربة صنهاجة، وقد قال في ذلك ما نصّه:" **سواء نجحت المحاولة أم لم تنجح، فإن الخليفة سيتخلص من تلك العناصر التي قد تعترف له بالجميل إذا نجحت العملية وإن لم تنجح فإنّ التعامل مع الأعراب في إفريقية أفضل من التعامل مع الدولة الصنهاجية**"[12]، فوافق الخليفة بكل حماس على هذه الفكرة، فكان أن أصلح بين القبائل الهلالية زغبة ورياح وغيرها من القبائل التي كانت بينهم حروب وأغدق رؤسائها بالعطايا وأفراد قبائلهم بالهدايا وأوصاهم بالإتحاد[13]، وقال لهم حسب رواية "**ابن خلدون**":"**أعطيتكم المغرب وما يملكه المعزّ بن باديس الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون**"[14]، كما وقد وجّه الوزير "**اليازوري**" كتاب وعيد وتهديد إلى المعزّ جاء فيه:" **إن لم ترجع عن رأيك، أتتك الجيوش موصلة سنابك خيلك، ناسخة بنقعها وومیضها حكم نهارها وليلها**"[15]، ثم وجّه له رسالة أخرى كان نصّها:" **أما بعد فقد أرسلت إليك خيلا وحملنا عليها رجالا كهولا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا**"[16].

فمما لاشك فيه أنّ الحكام الفاطميون كانوا يرون ضرورة التخلص من بني هلال، خصوصا وأنّهم كانوا مصدرا للاضطرابات والفتن، فقد حاولوا التخلص منهم دفعا لتلك الاضطرابات التي يثيرونها عن طريق تشجيعهم على الهجرة إلى بلاد المغرب.

كما يظهر أنّ الفاطميون كانوا عاجزين عن مجابهة الزيرين عسكريا، لاسيما وأنّ مصر في العهد الفاطمي كانت تعاني من عدة أزمات اقتصادية وصلت بها إلى حد حدوث عدة مجاعات نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري (ق10و11م) وكانت أشدّها الواقعة سنة(444هـ/1052م)[17]، إذ نتج عنها تراجع في عدد السكان جراء كثرة الموتى وإقفار الأرياف وتعطيل الأنشطة الاقتصادية، كما عرفت مجاعات سنة (447هـ-1055م) وسنة(457هـ- 1056م)، والواضح أنّ القبائل الهلالية القاطنة بصعيد مصر لم تكن بمعزل عن هذه الأزمات، فهي الأخرى كانت تعيش ظروف متدهورة[18]، الأمر الذي دفع بها إلى قبول الإغراءات الفاطمية والهجرة نحو بلاد المغرب الإسلامي.

بناء على ما تقدم يبدوا واضحا أنّ القطيعة السياسية التي أعلنها الزيرين اتجاه الخلافة الفاطمية، والأزمات الاقتصادية التي شاهدتها مصر نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري وطابع البداوة والفوضى والاضطرابات التي أحدثتها القبائل الهلالية بالدولة الفاطمية، كل هذه العوامل مجموعة شكلت الدوافع الكامنة وراء الهجرة الهلالية نحو بلاد المغرب الإسلامي، فما هي وقائع هذه الهجرة؟

وقائع الزحف الهلالي نحو بلاد المغرب:

بناء على الخطة التي وضعها الوزير "**اليازوري**"، سلّم الخليفة الفاطمي إفريقية إلى جحافل الأعراب الرّحل الذين كانوا يضايقونه، فكانت سنة (442هـ/1050م) السنة الفاصلة في إقرار الوجود الهلالي رسميا ببلاد المغرب الإسلامي، وكان أول ما نزل به بنو هلال "برقة" [19] حيث المراعي الخصبة، مدفوعين بأمل الغنيمة واستولوا على مدنها وقراها وعاثوا فسادا في أطرافها حتى حدود طرابلس[20]، هذه الأخيرة التي لم تكن أقل شأنا من الناحية التجارية عن إقليم برقة، بحيث كانت بها من الصناعة ما يتجهز بها إلى كثير من الجهات فضلا على أنّ لها مزارع شاسعة سمحت لتنتج الكثير من المنتجات الهامة، بيد أنّ كل ذلك خرب على يد الهلالين وأقفروا بواديها[21]، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّهم كتبوا إلى إخوانهم الذين مكثوا في الضفة الشرقية من النيل وصفا جذابا للبلاد التي اجتاحوها، لحثّهم على اللّحاق بهم، الأمر الذي دفع بالوزير الفاطمي"**اليازوري**" تعويض ما أنفقته دولته في العبور الأول، ففرض عليهم تعريفة العبور وهي دينارين على كل فرد أراد العبور فاستعادوا ما أخذ منهم أضعافا مضاعفة، حيث يقول "**التجاني**": **"...ثم إنّهم لما وصلوا إلى بلاد إفريقية، واستطابوها كتبوا إلى إخوانهم في اللحاق بهم، فلم يتركهم الجرجرائي أو يؤدي كل عابر فروا ودينارا، فأخذ بذلك أكثر مما أعطى"**[22].

ومن برقة استمرت قبائل بني هلال بالتدفق إلى أنحاء المغرب والصحراء، ففي سنة (443هـ/1051م) سارت جميع بطون بني هلال إلى إفريقية، والجدير بالذكر هنا أنّ القبائل الهلالية اصطدمت بالسلطة الزيرية فدارت معارك بينهما كان من أهمها معركة "**حيدران**" سنة (443هـ/1051م) أو 1052م)[23] التي تعتبر بمثابة إيذان بتدفق البدو العرب وسط البلاد وشمالها وبانتشار نمط العيش البدوي، وفي سنة (446هـ/ 1054م)، قام العرب بمحاصرة القيروان وشرعوا في العبث بأقاليمها وإفسادها، وبعد رحيل "**المعز بن باديس**" إلى المهدية سنة (449هـ/1057م)[24]، نهبت العرب المدينة، فنتج عن ذلك سقوط القيروان عاصمة الزيرين بعدما ارتكبوا فيها فظائع كثيرة من تخريب وتقتيل وإفساد[25]، كما تم لهم السيطرة على مدن أخرى مثل تونس وبونة وقسنطينة.

هذا، وقد تقدم الهلاليين نحو المغرب الأوسط من جهات مختلفة، حيث اصطدموا بجيش "**الناصر بن علناس**" في موقعة "**سبيبة**" سنة (457هـ/1065م)[26]، هزم على إثرها "**الناصر**"[27]، وبغض النظر عن أسباب هذه الموقعة فإنّها كانت فرصة لانتشار الهلالين بشرق المغرب الأوسط، وقد سلكت طوائف منهم طريق الصحراء حيث وقعت بينهم وبين قبائل "**زناتة**"[28] البربرية حروب طاحنة نتج عنها اندحار "**زناتة**" أمام الهلاليين، وبذلك تمكنوا من بسط نفوذهم على أنحاء المغربين الأدنى والأوسط.

وما ينبغي التنويه أنّ استمرار الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي ببلاد المغرب الإسلامي نتيجة العبث والفساد الذي ألحقه بها قبائل بن هلال، هذه الأخيرة التي لم تصل إلى المغرب الأقصى إلاّ في القرن السادس الهجري، ويعود الفضل في ذلك إلى الموحدين الذين قاموا بترحيل أعداد كبيرة من بني هلال إلى المغرب الأقصى بعدما حققوا عليهم عدة انتصارات في كل من المغرب الأوسط وإفريقية، فما كان على هذه القبائل إلا أن تخلد لطاعة الموحدين، وهنا ارتأى الخليفة الموحدي "**عبد المؤمن بن علي الكومي**"[29] نظرا لبعد نظره السياسي أن يسوس هؤلاء الأعراب سياسة جديدة تشغل نشاطهم الحربي وتقي البلاد إفسادهم، فاستعملهم في دواوين الدولة والوزارة والجيش، هذا وزوّج أبنائه بأميرات هلاليات بهدف تقوية الروابط مع هذه القبائل، إذ كان يعلم أنّها قوية وذات عصبية، وفعلا قد نجح في ذلك نجاحا ملموسا[30].

وقد شهدت مناطق الصحراء هي الأخرى وصول مجموعات من القبائل الهلالية حيث وصلوا إلى صحراء فزان، هذه الأخيرة التي شكّلت قاعدة لانتشار الوجود العربي في الصحراء باتجاه الجنوب والغرب، ومنها تدفق العرب إلى مناطق السودان جنوبا[31].

ومهما يكن من أمر، فإن الغزو الهلالي على أقاليم بلاد المغرب الإسلامي قد ترك بصمات واضحة في مختلف جوانب الحياة بالمنطقة وهذا ما سنوضحه.

تأثيرات الهجرة الهلالية ببلاد المغرب الإسلامي:

مما لا شك فيه أنّ زحف بني هلال على بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الخامس هجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي كان ذا تأثير عظيم على جميع الأصعدة، السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية وحتى عنصرية ولغوية في كافة أقطار الشمال الإفريقي.

وما يوضح جانبا من هذا التأثير في الجانب السياسي ما عرفته المنطقة من اضطرابات وعدم استقرار، فقد شهدت أسرة بن الزيري بعد الهجرة الهلالية تفتت دولتها بعد أن فقدت النفوذ الذي أولته لها العاصمة القيروان، فبالرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها "**المعز بن باديس**"[32]، إلاّ أنّ الحكم الزيري سقط نهائيا تحت ضربات الهلالين، هؤلاء الذين قاموا باقتسام بلاد المغرب الأدنى فيما بينهم مرتين[33]، ففي المرة الأولى كانت لزغبة طرابلس وما يليها، في حين تركت برقة وطرابلس لبني سليم، أما في التقسيم الثاني الذي كان سنة (446هـ/1056م) فأصبح لبني هلال افريقية من قابس غربا[34]، وكان أهم بطون بني هلال التي اشتركت في هذه القسمة رياح وزغبة والمعقل من رياح وجشم وفرة والخلط وسفيان.

والظاهر أنّ قبائل بني هلال أصبحت قوة عسكرية تخشاها القوى السياسية بمنطقة المغرب الإسلامي عامة، وما يوضح جانبا من ذلك ما قام به "**تميم بن معز بن باديس**" الذي خلف والده في

حكم ما تبقى من الدولة الزيرية، حيث سعى إلى إذكاء الأحقاد بين القبائل الهلالية بالخصوص بين بني رياح وبني عدي ضد الأثبج وزغبة، وذلك لمواجهة أحد الخارجين عليه ألا وهو " **حمو بن مليل**" صاحب صفاقس[35]، فكانت القبائل الهلالية بذلك تتحالف مع أكثر من جهة تحقيقا لأطماعها وأهدافها.

هذا، ولمّا تم لبني هلال السيطرة على المغرب الأوسط بعد واقعة سبيبة، انتهج أمراء بني حماد سياسة ترويض القبائل الهلالية وذلك بالتحالف معهم تارة ورشوهم تارة أخرى، وهذا دفعا لخطرهم وأذاهم، فقد كان "**الناصر بن علناس**" يخصص سنويا جزءا من المحصول الذي يجنيه ويقدمه للهلالين مقابل عدم التعرض له ولعاصمته، وكذلك فعل باقي الأمراء الحماديين، وهذا ما يوضحه "**المراكشي**" بقوله:"...**وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر، فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك، فأقاموا على ذلك باقي أيامه، وأيام ابنه الملقب بالعزيز، وأيام يحي**"[36]، الأمر الذي يدل على عدم قدرة أمراء بني حماد على صد القبائل الهلالية والوقوف ضدّها، فالواضح من خلال سياسة " **الناصر بن علناس** " مع هؤلاء القبائل أنّه عرف كيف يتعامل معهم من خلال إدراكه لعقليتهم التي تميزوا، كما يتضح أنّ تأسيس مدينة بجاية يندرج ضمن إستراتيجية عسكرية دفاعية، كان الغرض منها إنشاء قاعدة لحماية سلطانهم وسد منيع أمام زحف القبائل الهلالية ومرصدا لمراقبة تلك القبائل[37].

وفي هذا السياق يمكن القول أن الفوضى السياسية التي آلت إليها بلاد المغرب الأدنى عقب سقوط الحكم الزيري، راجع إلى عدم قدرة القبائل الهلالية على تكوين دولة هلالية بالمنطقة رغم تهيأ ذلك لهم، ولاشك أنّ ذلك لا يعود فقط إلى طبيعتهم التي جبلو عليها وتفضيلهم لحياة البدواة التي ترفض الاستقرار وتفضل أعمال التخريب التي بالغ "ابن خلدون" في تحديد حجمها، وإنما حاجة عامل العصبية القبلية الذي وحَد عرب القرن الخامس الهجري إلى عقيدة أو إيديولوجية توحد صفوفها، والأهم من ذلك أن تقنع غيرها بتبني مبادئها[38]، فقد جرت عادة قيام الإمارات في المنطقة، أن تلتف هذه القبيلة أو تلك حول هذا الداعي أو ذاك في مناطق بعيدة عن عيون السلطة المركزية القائمة، وعند اشتداد عودة الأتباع تتجه أنظار هذه القوة الجديدة نحو مركز هذه السلطة فتطيح بها وتحل محلها، وبالتالي فإن اتجاه هذين العاملين العصبية والعقيدة وباتحادهما فقط تقوم الكيانات السياسية وبضعفهما تتدهور، فتسقط.

هذا ولا يمكن أمام هذه الآثار السياسية السلبية تجاهل الدور الايجابي لقبائل بني هلال في بلاد المغرب، فسوء العلاقات بين رؤساء قبائل بني هلال وبين الأمراء الزيرين لم يحل دون مبادرة القبائل الهلالية في المشاركة في التصدي لغزوات الروم على مدن ساحل إفريقية.

وما يوضح جانبا من هذه المشاركة، دورهم في التصدي للأسطول الجنوي البيزي الذي هاجم عاصمة الزيرين المهدية وضاحيتها زويلة سنة (481هـ/1088م)، كما كان لهم دور مرموق في الهزيمة التي ألحقت بالنورمان في جزيرة الأحاسي وحصن الديماس قرب المهدية سنة (517هـ/1122م)[39]، وقد نوّه الأمير الزيري بدور القبائل العربية في إحراز النصر ودفع عادية النورمان[40].

ولما كان قيام دولة الموحدين بالمغرب الأقصى في منتصف القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي، أدرك سلاطينها منذ البداية القيمة القتالية لقبائل العرب الهلالية، فحرصوا على توجيهم للجهاد معهم في الأندلس التي كان يحدق بها خطر ممالك قشتالة والبرتغال، وفي الوقت نفسه يكون الموحدين قد تخلصوا من شغب تلك القبائل، فلّما عزم ثاني سلاطين الموحدين "**يوسف بن عبد المؤمن**" على الجهاد في الأندلس سنة (566هـ/1170م) استدعى العرب وحثهم على المشاركة، فكان أن لبوا النداء[41]، وفي سنة (580هـ/ 1174م) قرر الخليفة "**أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن**" معاودة الجهاد في الأندلس، فاشترط على العرب أنفسهم المشاركة في الحملة الكبرى بمائة وثلاثين ألف فارس وراجل[42].

كما كان لقبائل العرب الهلالية دور كبير في الانتصار الذي أحرزه الخليفة "**المنصور الموحدي**" بالأندلس في وقعة الأرك عام (591هـ/1195م)[43]، وعلى كلٍّ المصادر التاريخية حافلة بأخبار الدور الذي قامت به قبائل بني هلال في الجهاد في الأندلس إلى جانب الموحدين، وهي أخبار تشهد بشجاعتهم واستماتتهم في القتال دفاعا عن المسلمين وديارهم.

أما تأثير القبائل العربية الهلالية اقتصاديا في أقاليم المغرب الإسلامي، فيظهر من خلال الدمار الذي لحق بالمناطق التي حلوا بها كإفريقية وشرق المغرب الأوسط، نتيجة تخريبهم للمدن وحرقهم للمزارع في هجمات متلاحقة أتلفت التقدم العمراني الذي تنعم به المنطقة وقد قال في ذلك "**ابن خلدون**":"**واضطرب أمر إفريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها**"[44] وقال أيضا:" **وافريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وسليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت كلها خرابا بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر**"[45].

وما تجدر الإشارة إليه أنّه بعد إلحاقهم الهزيمة "**بالمعز**" واكتساحهم للقيروان أصبحوا جباة على ما تبقى من النشاطات الاقتصادية بها، فازدادت قبضتهم على افريقية، ودخلوا مرماجنة عن طريق الأربس واستولوا عليها، وفرضوا ضريبة على سكانها، كما قاسموا أهلها القمح والشعير ما يكفيهم وزيادة، ومنها استولوا على مجانة واتخذوا بها مخازن لتخزين غلاتهم[46].

ولما وصلوا بلاد المغرب الأوسط إثر موقعة سبيبة التي كانت سببا في إقرار وجودهم بأراضي المنطقة كما سبق الإشارة إلى ذلك، فإنهم حازوا على سهول قسنطينة فدخلوا مع أهلها في معاملات تجارية وشاركوهم الحرث والادخار، وتمادوا في السهول الممتدة من قسنطينة إلى ميلة إلى مرسى الخرز وامتلكوها حتى أصبحوا يزودون سكان المدن بالحبوب ومن ذلك تمويل أهل مرسى الخرز بالحبوب بسبب قلة زراعتها، ولما وصلوا إلى القلعة في أعقاب "**الناصر**"، هذا الأخير الذي قام بإقطاع بواديها لهم مقابل ترك المدينة بسلام، فكانت البداية لاستقراهم واندماجهم، والانتقال من حياة البداوة والترحال إلى حياة الاستقرار والعمل بالزراعة[47].

وبناء على ذلك اختاروا المناطق الخصبة للاستقرار، وحوّلوا جزءا منها إلى مراعي ومارسوا النشاط الفلاحي حتى حققوا اكتفاء ذاتيا وموّلوا المدن بالحبوب، واعتمدوا طريقة تخزين الغلة، فكان هذا دليلا على كثرة الإنتاج من جهة، وعلى نية الاستقرار عند القبائل الهلالية وبداية وجود الذات لهؤلاء في بلاد المغرب من جهة ثانية.

وما ينبغي التنويه، أنّه كان من نتائج استقرارهم بعد خضوعهم للدولة الموحدية أن فرضت عليهم التزامات اتجاه الدولة، من بينها دفع الضرائب باعتبارهم كغيرهم من المواطنين مع المساهمة بعدد من أبنائهم في الحملات العسكرية التي يقوم بها ولاة الأمر، حيث يقول "**ابن خلدون**": "**وكان موطنهم بسيط تامسنا، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية**"[48].

أما المناطق التي اختاروها للاستقرار فكانت في معظمها مواقع إستراتيجية اقتصاديا من حيث وقوعها على أهم المسالك التجارية، من ذلك مسالك تجارة القوافل الصحراوية مع بلاد السودان وبلاد مصر والمتمثلة في واحات برقة و أوجلة و وارجلان، والطرق الرابطة بين أهم مدن المغرب الإسلامي، مثل المسلك المؤدي من المسيلة إلى قفصة عن طريق مقرة وطبنة وبسكرة وتهوذة ، وما كان يصل تيجس بالمسيلة عن طريق قسنطينة وميلة وسطيف، والمسيلة بفاس عن طريق أشير وتنس وتاهرت وتلمسان والطريق الرابط باغاية بطبنة عن طريق بلزمة ونقاوس، ومجانة بعنابة عن طريق تيجس، بيد أنّ القبائل الهلالية لم تمارس النشاط التجاري، لكن من دون شك استفادت من هذه المسالك بفرض ضريبة المرور أو ما تعرف بضريبة العهد والأمان (الخفارة)[49].

ومن دون شك أيضا أنّ الهجرة الهلالية نحو بلاد المغرب تركت آثارها البارزة في النواحي الاجتماعية، وما يوضح جانبا من ذلك التأثير، دخول عناصر جديدة بدوية في هيكل المجتمع المغربي، وكان لهذه العناصر خصائصها العقلية والخلقية من حب للشجاعة والحرب والكرم والأدب وحفظ العهد وحسن الجوار، كما تعرّب قسم من سكان البلاد نتيجة التزاوج والاحتكاك بسكان المنطقة[50]،

كما أثرت القبائل العربية في لغة البربر نتيجة الاختلاط والمعايشة اليومية، فانتشرت بذلك اللغة العربية في أجزاء كبيرة من المنطقة، مما ساعد على انتشار الثقافة العربية ببلاد المغرب الإسلامي.

خاتـمة:

يتضح مما سبق أنّ القبائل العربية الهلالية تركت بصمات واضحة في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي ببلاد المغرب الإسلامي منذ أن هاجرت إليه في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، ومن ثم تعتبر هذه المرحلة حاسمة في تاريخ المنطقة، لما أحدثته من تحولات وتغيرات جذرية من حيث إعادة صياغة العناصر البشرية المكونة للمجتمع المغربي، والعمل على توزيعه جغرافيا من حين لآخر، إضافة إلى أنها تركت بصماتها على الخريطة السياسية والعمرانية لمنطقة المغرب، فبسببها بنيت بجاية وظهرت إمارات مستقلة وتقلص نفوذ الزيريين بالمغرب الأدنى، كما أسست لنمط اقتصادي جديد ساد أغلب مدن وحواضر المغرب نتيجة الاستقرار الهلالي، وعلى الصعيد السياسي زادت في ضعف السلطتين الزيرية والحمادية، ولاشك أنّ وجودهم في المنطقة ما كان ليفرز مثل هذه النتائج لولا الأوضاع المتردية التي عرفتها السلطة الزيرية، الأمر الذي يغنيهم عن بذل مجهود كبير في السيطرة على أراضيها.

الهوامش:

[1] **شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، 1981م، ص 171.**

[2] **يصف العديد من المستشرقين من ذوي النزعة الاستعمارية الهجرة الهلالية بالحركة الهمجية المسببة للدّمار والخراب الذي لحق بالبنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب، ويحملّون العرب المشؤولية الكاملة في اضمحلال الحضارة الغربية، ونشر الفوضى وإدخال** البداوة واحتلال أراضي البربر وضمها عنوة، ينظر:

Georges Marcais, **La berberie musulmane et l'orient au moyen Age**, Edition Afrique Orient, Casablanca, 1991, p193.

Emil Felix Gautier, **L'islamisation de l'Afrique de Nord**, les siècle obsccrs du Maghreb, paris, 1927, p389.

[3] **المعقل**: أرجع المؤرخون نسبهم إلى بني هلال وعرب اليمن، بينما هم كانوا يدعون النسب الهاشمي وبالضبط إلى جعفر بن أبي طالب، وذلك غير صحيح حسب ابن خلدون، والصحيح أنّهم من عرب اليمن، والمعقل هو: ربيعة بن كعب بن ربيعة بن الحارث، وهو من بطون مذحج اليمنيين وتنقسم

المعقل إلى ثلاثة فروع: بنو عبيد الله، ذوي منصور، ذوي حسان، وقد انتشروا عبر المغربين الأوسط والأقصى من جنوب تلمسان إلى المحيط الأطلسي، ابن خلدون، العبر، ج7، ص 260، وج6، ص ص 78- 79، السلاوي، الاستقصاء، ج2، ص ص 131- 132.

[4]- **بنو هلال**: يعود نسبهم إلى قيس بن علان من العدنانية، فهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية، بن أبي بكر بن هوزان، ولهم بطون كثيرة منها مرداس، بنو عامر، بنو سعيد، بنو سليم....وغيرها، ينظر، رضا كحالة، معجم القبائل القديمة، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص 1221.

[5]- المقريزي، **البيان والإعراب عما حل بأرض مصر من الأعراب**، تحقيق عبد المجيد عبدين، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1961،ص ص 125-126، رابح بونار، **المغرب العربي تاريخه وثقافته**، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 192.

[6] - القلقشندي، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان**، تحقيق إبراهيم الأبياري، 1962، ص 117، مبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**،ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 19، ص 179.

[7] - المقريزي، المصدر السابق، ص 45، ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، بيروت،1981، ج6، ص14.

[8] - **الصعيد**: هو ظاهر مصر وكانت به عدة مدن كقوص ومنفلوط وأسيوط واحميم، وكانت أرضا فلاحية بها مساجد وكنائس وصناعات، ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 70- 75.

[9] - المقريزي، المصدر السابق، ص126، زامباور، **معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي**،ج1، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة،1951م، ص 145، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 179.

[10] - الدباغ أبو زيد، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تعليق محمد الأحمدي،ج1، المكتبة العتيقة، تونس، 1964، ص 58.

[11] - **اليازوري** نسبة إلى قرية من قرى فلسطين تدعى يازور، الصيرفي علي بن محب، **الإشارة لمن نال الوزارة**،القاهرة، 1924، ص73.

[12] - ابن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص 14، الهادي روجي إدريس، **تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12م**، تعريب حمادي الساحلي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 248,

[13] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 30، ابن عذارى المراكشي، **البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، 1967، ص 417.

[14] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 14.

[15] الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 249.

[16] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص14، النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984، ص341- 342.

[17] - ينظر: المقريزي، المصدر السابق، ص 26.

[18] فوزية كرراز، **السيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي**، دورية كان التاريخية، العدد الثاني عشر، 2011م، ص 51.

[19] **برقة**: اسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس أي خمس مدن، وهي أول ما ينزل المسافر بها قادما من مصر إلى بلاد المغرب، البكري، المصدر السابق، ص 3، الإدريسي، ص 211، اليعقوبي، ص 182.

[20] - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 288، الهادي روجي إدريس،المرجع السابق، ج1، ص 251.

[21] الادريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م، ص 297.

[22] التيجاني، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، 2005م، ص 55، ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 288، الهادي روجي إدريس،المرجع السابق، ج1، ص 251.

[23] الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج 1، ص 308.

[24] **واقعة حيدران**: وقعت بجبل حيدران بين جيش "**المعز بن باديس**" الأمير الزيري وبين القبائل الهلالية من رياح وعدي، أسفرت هذه المعركة عن هزيمة الأمير الزيري الذي فر بنفسه وخاصته إلى القيروان، فانقض العرب على مضاربه وخيامه ونهبوها وكان فيها من الذهب والفضة والأمتعة أعداد هائلة فكانت كلها من نصيبهم، ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 289- 290، رابح بونار، المرجع السابق، ص ص 195- 197.

[25] ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 294، الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 272.

[26] رابح بونار، المرجع السابق، ص 198.

[27] **واقعة سبيبة**: وقعت بأراضي المغرب الأوسط بفحص سبيبة غربي القيروان بين أعراب بني هلال وجيش "**الناصر بن علناس**"، هذا الأخير الذي مني فيها بهزيمة نكراء، وعلى إثرها قفل راجعا إلى قسنطينة ومنها إلى القلعة أين شرع في تأسيس مدينة بجاية فرارا من بني هلال وصدا لهجماتهم، الإدريسي، المصدر السابق،مج 1، ص 265، رابح بونار، المرجع السابق، ص 199.

[28] **زناتة**: قبيلة مغربية تتكون من عدة بطون متشعبة يذكرها "ابن خلدون" بـ"شعوب زناتة" لكثرتها وللهجتها التي تختلف فيما يبدو عن اللهجات الأمازيغية الأخرى بناء على قول "ابن خلدون": "وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر"، ولهجتها من أصول سامية، تلتقي مع اللغة العربية في بعض خصائصها، تمتد مواطنهم من وادي ملوية غربا إلى واد شلف والزاب شرقا، ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى إقليم تيهرت جنوبا، ابن خلدون، العبر، ج7، ص ص 3-4.

[29] **عبد المؤمن الكومي**: مؤسس الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ولد في قرية تاجرة قرب مدينة ندرومة سنة(476هـ/1097م)، تمكن من القضاء على المرابطين سنة(541هـ/1147م)، ثم على الحماديين سنة(546هـ/1151م)، ثم تفرغ بعد ذلك لتنظيم مملكته، ليستأنف نشاطه سنة (554هـ/1159م) فيقضي على الزيرين، وفي سنة(557هـ/1162م)، قام بتجهيز جيش قوي ليعبر به إلى الأندلس، لكن المرض فاجأه وهو في طريقه، مما اضطره للعودة إلى سلا، أين توفي هناك سنة(558هـ/1163م)، عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص 305- 306.

[30] مبارك الميلي، المرجع السابق، ج2، ص 185.

[31] رابح بونار، المرجع السابق، ص 199، محمد بن عبد العزي، **صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصروالأندلس**، تحقيق دي غوي دوزي، أمستردام، 1969م، ص

[32] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ج10، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م،الطبعة الأولى، ص 259.

[33] ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 302، التيجاني، المصدر السابق، ص 263.

[34] - عمارة سماعين، **الآثار السياسية للهجرة الهلالية في المغربين الأدنى والأوسط من سنة 433هـ/1052م إلى سنة 543هـ/ 1152م**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2011م، ص 52.

[35] ينظر في ذلك: ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص 29 ، الهادي روجي إدريس،المرجع السابق، ج1، المرجع السابق، ص 293.

[36] ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق،ج1، ص 124.

[37] عمارة سماعين، المرجع السابق، ص 99.

[38] غالب السيد فرحات، **علاقة القبائل الهلالية بأزمة إفريقية في القرن الخامس للهجرة**، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مج 5، عدد 2، ص 132.

[39] التيجاني، المصدر السابق، ص 336.

[40] التيجاني، المصدر نفسه، ص337-339.

[41] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، الطبعة الأولى، دار الأندلس، بيروت، 1983م، ص ص 360- 417.

[42] ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص 190.

[43] ابن عذارى، المصدر نفسه، 152، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م، ص220-227.

[44] ابن خلدون:، المصدر السابق، ج6، ص 16.

[45] محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ط5، ص 150.

[46] الإدريسي، المصدر السابق، ص 293، فوزية كرراز، المرجع السابق، ص 54.

[47] فوزية كرراز، المرجع نفسه، ص 54.

[48] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 31.

[49] فوزية كرراز، المرجع السابق، ص 55.

[50] رابح بونار، المرجع السابق، ص200.